مقاطعُ منْ لحنٍ عنيدٍ

مجموعة قصصية

فتحي إسماعيل

ديوان العرب
للنشر و التوزيع

دار ديوان العرب للنشر و التوزيع – مصر - بورسعيد

اسم العمل : مقاطع من لحن عنيد

اسم المؤلف : فتحي إسماعيل

الجنسية : مصر

التصنيف الأدبي : مجموعة قصصية

الترقيم الدولي : 978 - 977 – 6707 - 11 – 2

رقم الإيداع : 2019 / 11629

تدقيق لغوي : نجاح العالم السرطاوي

تصميم الغلاف : محمد وجيه

المدير العام : محمد وجيه

تليفون : 00201211132879

الإهداءُ

إلى زينبَ

جناحيْ الرحمة والحنان..

إلى محمود..

النبتة والجذر

إلى شيماء...

لم يرك محمود وزينب فأنجبتِهما من جديد.

إليكم وإلى من تبقى من رفاق الطريق

أهدي هذا الكتاب .

فتحي إسماعيل

*****

كيمياءٌ

تجلسُ الآن وحدَك، تهربُ إلى فضاء أوراقكَ... بعد أن أرقتكَ الهواجسُ... بعد أن قلقلت الأفكار المرة جمجمتكَ... فلا تستكين على الوسادة، قمتَ فزعًا إلى قلمِكَ المختبئِ تحت كومة المجلات والكتب، أوقفتَ حافره على أوّل المضمار لكزتَه بكلماتك، لم يستجب، أحنقتكَ رعونتَه, بحثتَ داخلكَ عن فارسٍ يســـوس... وجدتَكَ نائمًا، هدّك الإعياء. تفترش الحطب اليابس... تتوســـد الآتي دون أن تبصره... وكأن جبران كان يعنيك حين قال :

"عندما تدرك غاية ما يجب أن تعلم، ستبلغ بداية ما يجب أن تشعر به "

ستَتْرى عليك الأحلام المخاتلة دون أن تقدر على تفسيرها، تفطن إلى أنك تجهل الكثير، تخليت عن جوادك/ تخلى عنك، أنت الذي تخير القلم ليكون رسولًا، وما أقنعت بكلامك حتى الرسول، تزعم الآن أنك ستنكس إلى مرحلة أخرى، تملأ فيها كنانتك... تشحذ سهامك... تراها الآن بعين خيالك وقد تأسّـل طرفها، ترشقها في قلوب أعدائك الذين لم يعرفوك بعد. لعلك تفتقد الدفء فتنثره من خواطرك... تستدفئ على نار خوفك.... تلعن الشتاء وتنسب للصيف أمجادًا لا تقنعك – أحيانًا – بأفضليته.

تعيش الأحلام واقعًا... لا يرضيك أن لا يراه الآخرون كذلك..

تبشر من حولك بأن كل فجر يعقب دومًا ليلًا.
يبتسمون... وقد ارتجّ عليك معنىً خفيٍ...
اختلطت رؤاك... شاهت هواجسك... شاخت أحلامك.
ابتسامة الشيب الصفراء تعبث بما تبقى لديك من أمنيات... تتوق لدفء قديم - ينبعث نداءٌ بداخلك - قوي - إليه، يدفعك لأن تؤمن به...
تتبعه... و..... تنتظر.

****

مقاطع من لحن عنيد

1- منظرٌ عامٌ

- تات .. تات .. تات.

كان صوت دقيق منغم يصدر من سماعة هاتف معلقة, تتأرجح من كابينة اتصالات عمومية وسط الميدان العتيق .

.....

2- المشهدُ قبلَ الأخيرِ

جسد نحيل ملقىً على وجهه.. فاردًا قدمًا.. مرخيًا أخرى.. قابضًا بيده على قصاصة ورق صغيرة.. غارقًا في بركة دماء أغرقت الرصيف، بينما انساب إلى أسفلت الميدان خيط تَجمّع في دائرة حمراء قانية، تلمع تحت أشعة شمس أغسطس في منتصف النهار، مقطوع الشريان تحت السماعة المتأرجحة وسط الميدان العتيق.

3- البدايةُ

مع أول نظرة إليها.. دبّت فيه حياة جديدة..
وأوأ القلب الوليد، و... مع أول نظرة منها انسابت من حوله / من داخله أنغام عذبة، تُرى .. هل كان يغني "لفيروز" أم يستمع إليها ؟.. لا يدري، فقط.. كانت الدنيا من حوله لحنًا متواصلًا رقص عليه مثل "فرانك سيناترا" في "حب تحت المطر" وسط الشوارع, تجاهل نظرات الأعين الكثيرة في الرؤوس المتشابكة، دفع كل الأجساد، انساب وسط الزحام كعصفور طليق لتوه، وفي غرفته القليلة الأثاث قدّم أروع عرض مونودرامي متمثلًا كل فرسان العشق منذ آدم.. إليه .

....

4- مشهدُ الحبَ الأخيرِ

بعد لقاءات قليلة.. أخبرته أن اللقاء بات خطرًا عظيمًا, اقترض من كل معارفه، أحضره إلى البيت.. رفع السماعة.. اختلج قلبه بشدة لمّا وصلته النغمات المنبعثة منها معلنة وجود الحرارة.. عزف لحنها.. أتاه من بعيد صوتها :

- آلو.

ارتضى أن يلقاها عبر أسلاك الهاتف, قنع منها بصوتها الحالم ينساب مدغدغًا حواسه، فاتحًا قلبه على مصراعيه، لترتاده بين الحين والحين, تجُول في ربوعه.. تعيد ترتيب محتوياته.. تنظفه من كل الأشياء، تستبدلها بصورة لها بحجم القلب، قال كثيرًا، أخرج صورتها المعلقة على جدران القلب.. وصفها خلية خلية.. بكل ألوان الورد.. بكل روائح العطر, صمتت.. استنطقها,

قالت :

- أحبك .

.....

مقاطعُ اللحنِ العنيدِ

كان يعشق السينما.. فجعلها بطلة أحلامه، كلمها عن لعبة الشطرنج التي يهواها.. فلاعبته الكوتشينة التي لا يجيدها و لا يحبها، أخرجت له من بين الأوراق عريسًا، فالتهم كل أوراقه الباهتة، ألقته في بئر من الحيرة حينًا.. ليسبح نحو بالوعة اغتراب مدفوعًا بالأمل مزودًا بالعشق.. محملًا بوعد أزليّ.. بالحب.. والانتظار .

كان عاشقًا لا يحسن التعبير عن خلجاته سوى بالشعر والغناء.. وهبها من روحه بضع كلمات، معزوفةً شعريةً طرّزها بحروف اسمها الغالي، ومن جُبّ اغترابه عزف لحنها الطويل..أسمعها ما كتب، فأتاه صوتها متكاسلًا:

- تصبح على خير.

أردفت: - صوت "الترنك" يزعجني.

طوى صحيفته وانزوى ينزف سؤاله :" ما الذي جرى "؟.. دمًا صاحبه إلى أن عاد يجني ما حصد؛ ألمٌ في الظهر.. علةٌ مزمنةٌ بالصدر المتيم، وصورة بحجم القلب.. عنوانها قصاصة مطوية، محفور عليها لحنها، رافقت في حقيبته قليلًا مما ادّخر.

عزف لحنها من كابينة اتصال عمومية.. أتاه صوت معدني بارد:

- هذا الرقم غير موجود بالخدمة.

تعجب قليلًا ثم عاود الكرّة، ليجيبه نفس الصوت،كرر الطلب.. عبس

برهة.. لكن سرعان ما عبث به الأمل، ليقضى أيامًا / أسابيعَ / شهورًا.. مصدقًا له، باحثًا دون كلل، قابضًا على قصاصة الورق، محدقًا في كل وجهٍ قد يكون لها، لكنها لم تكن هناك.

أخرج صورتها.. سألها، جمودها ألم الفراغ الذي خلّفته، ردّها واستدار يواصل البحث دون أمل.

أشعث.. أغبر.. محني الظهر، هل كان يحاول رؤية الصورة المعلقة على جدار القلب؟

ربما، وربما لو سأل عنها دمه.. أن تجيب عزفه غناء.. أن تعدو إليه .. أن تفي بوعدها القديم، لذا.. بآخر ما تبقى لديه من أمل تقدم نحو الكابينة..

أولج " الكارت ".. عزف اللحن، أجابه نفس الصوت المعدني مستنفدًا آخر ما تبقى من أمل، مشيّدًا جدارًا مانعًا دونها.

استل ماكينة الحلاقة التي لم يستعملها منذ عاد، أخفى وجهه في تجويف الكابينة.. أدخل يديه.. رفعهما أمام عينيه، باليد اليمنى اقترب قابضًا باليسرى على بروز معدني دون أن يتخلى عن قصاصة الورق حاملة اللحن العنيد، الآن.. الموسى متقاطع مع شريان المعصم، يضغط.. يغمض عينيه، يضغط أكثر.. يهتف باسمها.. يغيب، يقع متشبثًا بالورقة الصغيرة ذات اللحن القديم.. متصاحبًا مع صوت السماعة المعلقة :

تات – تات – تات – تات

6- النهايةُ

محاطًا بعشرات الأقدام مغطىً بورق جرائد ملوث بالدماء.. ينظر في مئات الوجوه التي تتطلع إليه بأسف وحسرة وشفقة وحزن، رأى كل العيون دامعة ما عداها، تتأمله في جمود من خلال عينيها المرشوقتين في جسده المسجى تحت السماعة المتأرجحة.. وسط الميدان العتيق.. دون دمعة حزن أخيرة.

****

عـــوســـجـــةٌ

تمامًا في سرة السماء.. تعبس بوجهها الملتهب، تنفخ من جوفها حممًا قائظة تلسع الجباه، تحرق أنسجة الملابس البترولية، تكوي اللحم الذي أوهم أن للملابس دورًا آخر غير "الستر"، تتفصد مسام الجسد ملحًا مبللًا بالماء، أو هكذا خالته أمينة، تسير محتمية بالبنايات التي تحجب عنها الشمس ولا تقيها حرّها . تشوي جلدها، مناطق ما في جسدها حسبتها علامة تفرد.. خاصية تخوّل لها تيهًا ودلالًا تكاد الآن تلعنهما، تتوقف أمانيها و أسمى طموحاتها عند حمام شقتهم.. تحت الدش الصدئ تحديدًا. تزداد ضيقًا بالإيشارب، يحجز العرق الذي يطوّق الرقبة فيصبح حسكًا ينغز منابت الشعر تتمنى لو خففت قليلًا من ملابسها هذه الأيام، التي لم تكن أبدًا كباقي أيامها، نارًا أُبدلت من قلق شهورًا تعانيه، خالته سينتهي، فإذا به يتحول أتونًا مشتعلًا، ينهش صدرها ببخة تنين متعملق يحمل في أحشائه كل من عرفتهم إلا ماجدة:

- أينك الآن ؟

وحدها فكرت، وحدها حاولت أن تطفئ النار :

- لكن... بالنار يا ماجدة ؟

- "كنا نعتقد أن بالحقيبة أدوات الماكياج.

- أو ساندوتشات.

- أو رسائل الغزل.

- فإذا بها مسدسات.

- كيدهن عظيم".

لو كانت معها الآن لردت للمتحذلقين الصاع صاعين، غصة تخنق بداخلها الريق المزدرَد.

- لستم بأقل منه استحقاقًا للردع.

تهمس بخاطرها...

يجيبها صوت ماجدة من قاع رأسها المترع بالذكريات :
" كائنات ضارة, أشبه بالذباب الذي لا يفرق بين العسل والدم المتخثر "
هكذا بصقتها ماجدة كرةً من القرف.

حينها كان يقف أمامهما محتميًا بفرع مائل ظلل الرصيف تاركًا الأم في مدخل أحد البنايات الحكومية، يبتسم البلل على شفتيه، يهش الذبابة من على الأنف الأفطس، يتسامق طوله بحدبة تقي شعرًا حالكًا لامعًا مصفوفًا للوراء بعناية وقد شُوّشَ بعضُه الأمامي وتـدلّى حتى الحاجبين المزجّجين، يلقي بظله على أيّهن، لا تردعه تأففات الازدراء، لا يعنيه كرهًا يطفح على العينين نارًا،لا تشعره بذرة أرق.. لا تقلقل ثبات خطواته، تصطك ركبتا أمينة، تلتصق بصاحبتها التي ترمقها بعتاب غاضب، تحدجه بنظرتين يشتعل التقزز فيهما، تسحب رفيقتها، تفضّل نار الشمس على زمهريره اللزج.

تنفخ أمينة في ضيق توجعها الذكرى، تهتف :

- ليتها ما جرأت .

تسير وكأنها لا تنقل قدميها، تملّ الرنوَ إلى معلم تحفظُه.. الزحام يخنقها، يعرقل خطواتِها، الشمسُ لا تتركها دون أن تدعس قوامها بيدٍ ملتهبةٍ، تنحني، تغرقُ في عرقها، خجلها المميت، تصلُ موقفَ السيّارات،

- أخيرًا.

تزفر في ارتياح سرعان ما يتحول إلى ألم يعتصـر قلبها، هنا كانت تصافح " ماجدة " تتباعدان واليدان متشبثتان، تتراجعان والأصابع متكالبةً،

والأناملُ بعد هنيهات الملامسة الأخيرة، تفترق على وعد باللقاء بعد يـوم دراسي لم يتركا للهواء منفذًا يحتله أو يعبره بينهما.

هنا رأتها للمرة الأخيرة، محاطة بعشرات الأيدي... تخبط كفًا بكف، تشوّح، تشير إلى بقعة ما في الأرض، بمئات الأعين.. يندفع منها سائل لزج نحوها، يعتري جسدها المحطوط في البؤرة، يأكل أمينة سؤال، يضعضع حواسها مبهم، خوف خفي يظلل محيطها، هلع حقيقي يزلزل كيانها.. يرعش فرائصها.. يترك فقط في الحلق غصة، يتحجّرُ فمها، ترفع يدها، وصوت متحشرج مخنوق :

- ماجدة!!

على عينيها ثبات عجيب، في وجهها إصرار قوي، لا ترى صاحبتها التي تسأل من حولها بينما تأتيها الإجابة كلمات متناثرة تخرج من أفواه عدة :

- قتيل.

- البنت قتلته.. مسكين.

- كانت تحمل مسدسًا في حقيبة يدها.

- معركة انتهت بإطلاق الرصاص.

تساءلت و" مستحيل " تلون كل حروف سؤالها برفض رمادي:

- هكذا تنتهي ماجدة ؟

- هكذا أبدأ.

قالتها " ماجدة " للمذيع التليفزيوني، نصّب من نفسه وضيوفِه قضاةً، كانت تراها من خلف سيل دمع يحرق مآقيها، قال أخوها :

- لم يتركن شيئًا لنا، حتى الحياة يسلبنها منا، يقضين علينا بالفتنة وبالموت.

رمقته " أمينة " بغضب مرير منكسر وهرولت إلى غرفتها وتركت للوسادة احتضان ما تبقى لديها من دموع، في نفس الليلة جاءتها في مدرج خالٍ من سواهما.. هبطت من أعلى أم انشقت عنها الأرض؟ لا تدري.

بيدها مسدس تضعه على كفها وتبتسم نفس ابتسامتها العذبة، في عينيها سؤال سمعته أمينة ولم تفه به "ماجدة":

- أترينني قاتلة ؟

- لا.

- لماذا تخليت عني ؟

- ناديت عليك ولم تسمعيني.

- سمعتك. - لم تردي.

- كانوا يقيدونني.. سلاسل بعدد عيونهم وقوة رفضهم، طوقتني، تخللت جسدي، فكوا إيشاربي، سلسلوا خصلات شعرى.

- رأيتهم.

- لم تمنعيهم.

- خجلت.

- هكذا أرادوني.

- أنت أفضل منى.

- تريدين علاقتنا تستمر؟

- نعم .. أنا ...أ .. أ..

تتعثر الحروف على لسانها بينما تتباعد ماجدة، تتراجع وكأن شيئًا ما يدفعها للخلف حتى تختفي، تصرخ:

- ماجدة ..ماجدة.

- أمينة .. أمينة.

يصلها صوتٌ هامسٌ حانٍ، يسحبُها خلال ممرٍ رمادي تفتح عينيها لتجد أمَّها تضع يدًا على صدرها والأخرى تمسح على شعرها:

- حلمت ؟

- ماجدة يا أمي.

- لها الله.

- لم تذنب.

- القتل جرم بشع.

تعتدل في سرعة خاطفة، تراه فوق الدولاب يخرج لسانه لها:

- كان يستحق.

- ليس لنا الحكم، لا يأخذ الروح إلا من خلقها.

- لم يكن آدميًا.

- لا يجوز عليه الآن إلا الرحمة.

- لن يرحمه الله.

- استغفري الله.

- إنه شيطان، شيطان يا أمي.

تلقي بنفسها تحت الدش، تحتضن حلمها بالماء البارد، تُسبّل جَفنيها، تثق في الجدران تترك لجسدها حريته، يبوح ويتنفس، ولكن اللحظة تأبى تركها والحلم يهنئان بلا ذكرى يجفل لها قلبها وتتأجج في الجسد نار تؤرقه، تجرحه.. ولا تفلح المياه في تبريد الجراح فتبقى لترى فيها دموع ماجدة التي تبلل خمارها.

لم أعد أطيق لقد وصلت إلى هنا بصعوبة، يطاردني أينما ذهبت، لم يدع لي منفذًا، رنين الهاتف لا ينقطع، لا يترك أبي وأخي في حالهما، يطاردهما أيضًا، بات رواد المقهى يعرفونني، صوري يتناقلها الطائشون.

- منها لله " مديحة " أسلمتك للشيطان.

- بعد أن أسلمت نفسها.

- يفرد شباكه القذرة أينما راح.

- ولا يعدم وسيلة.

- فرصة لا تضيعها الساقطات.

- على أشكالها تقع الطيور.

- خنازير.

- أنتِ الصيد الذي تمرد.

- يهدد أبي بنشر صوري ولا يترك أمي لحالها، يطلب مالًا ليسكت.

- أعطوه إذًا ما يريد.

- يقول أبي أن في ذلك اعترافًا بثمة علاقة.

- والعمل؟

- سأصبر.

تنظر للسماء بعينٍ دامعة وقلب مكلوم، تشاركها أمينة الصلاة صمتًا...، لا تدري أنّ أرقها جثم على قلب صاحبتها، بات همها ولمّا فعلتها انشطرت أمينة إلى نصفين، نصف مستريح ونصف يقتله الألم، نصف يبكى صاحبتها ونصف ينشد فيها الأغانى، نصف قلق على مستقبلها، ونصف قرير بنجاتها.

- أهو حب؟

قالتها أمينة من داخل أحـد المدرجات وهي تنظر من نافذته إلى فناء الكلية، تتابع الثنائيات المتناثرة تحت ظلال الأشجار والمظلات الخشبية و... الهمس محيط... نظرت ماجدة نظرة سريعة ثم تراجعت قائلة :

- مودة ... كهذا الحذاء .

تشير إلى قدميها وتكمل :

- أليس مستوردًا ؟ تنظر أمينة في عينيها لحظات .

ثم تنفرج الشفاه عن ابتسامتين ضالتين، أكسبتا وجهيهما ملاحة غبّرها الحزن .

من شق ضيق في النافذة ينساب شعاع الشمس، عمود مائل يتراقص الغبار في محيطه الضيق، يضـيء العتمة، يمنع انكساره عند المرآة أمينة أن ترى وجهها، لا تهتم، تتأمل الأسطوانة المفعمة بالغبار، تمتلئ حجرتها به إذن، بل الشارع.. الدنيا، لا يتضح إلا بمفارقة كهذه، فى قلب العتمة، يروح شهيقًا، ولا يجيء مع الزفير، يحطّ على الأثاث.. الملابس.. العيون.

تقلقنا الحقيقة، نكره من يكشف عرينا، والعرى ذاته اختيار.

كانت تبحث في" شنطة يدها" عن منديل ورقي حينما رأته، جفلت:

- ما هذا ؟

ابتسمت ماجدة في ارتباك و أغلقت شنطة يدها:

- مسدس ؟ ماذا ستفعلين به ؟

- أدافع عن نفسي.

- أخشى عليك منه.

- المسدس أم هو؟

- الاثنان.. و مستقبلك.

- الذئب لم يترك في الحاضر فرجة أتطلع منها إلى الغد، أخرج من جرابه اللعبة الجديدة، حيلة شياطين.. وثيقة زواج عرفي، طالب بالمال وإلا سيفضح أمري، لم ينتظر الرد، نشر الوثيقة بين المعارف.

بات الكل يرونها لوحته التى تمردت أعلنت أنها لم تزل ورقة بيضاء، عبثت أصابعه على أوتار السكون فأجج في محيطها نارًا عبثًا حاولت إطفاءها، و.. ليلة حمراء... لو قضاها معها سيستريح، ويستكين الشيطان داخله .

الشرطة لا تقنعها الاتهامات المرسلة، والشرف لا يستحق الحراسة، أغلقت بابها وأسلمت نفسها للحبس الاختياري، عيون الزملاء والجيران والأقارب

تهتك رجولة أبيها وأخيها، تكشف الستائر الكثيفة بينما يستلقي أصحابها على الأرائك يتفرجون، يتندرون، يمصمصون الشفاه وهم يرشفون المثلجات في ارتياح وسكينة، إلا هي.. وحدها تشعر بصديقتها، تعاني معاناتها، تخشى عليها منه.. وعلى نفسها، لا تدري ما يخبئه الغد، لا تأمن هجمة الذئاب المفاجئة، تكتظ الصحف بأخبار الاغتصاب، والطوفان لا يبقي على أحد، تعتصرها المخاوف، تشلها الهواجس، يلدغها خاطر.. لو صادفها في إحدى الطرق، لو تخيرها صيدًا، تتوخى السلامة ؟ وتستبدل بالوداعة ثوب الحيات مثل من توخينها ؟ وتحلّق.. فوق هيكل الأب المنكسر والأخ الملتاث؟ والأم حين تقرأ الفاتحة فى ساعة لا تكاد تعي ما تنطقه، لا تردع شقيقتها حين تنفلت؟ تقطف بين يدي الإثم ورودها الحمراء وتقدمها قربانًا لأمنها ؟ أصبحت ترى أخبارها بين المغتصبين والقتلة . تفرج عنها النيابة بكفالة. يراودها سؤال،:

- هل تزورها؟ تحتضنها كما الأيام الخوالي؟

ترتعد، يخفق قلبها بشدة، تعييها الإجابة، تلقي رأسها على الوسادة وتروح في إغفاءة ..لا تسقطها في هوّة كرى مستقر.

****

سيرةُ صرصارٍ

تحتمت كينونته وسط القذارة، ألفها، تكيف معها، لم يسبق أن ازدراها.. أو مقتها، فكانت أصله ومنشأه، حياته وملاذه، يبدأ حياته منها.. وينتهي حلمه إليها، كل آماله ألا يناله نعل قبقاب أو كعب حذاء.

شبّ، انتقل بأقذائه مع القذارة الأم إلى محيط آخر، تتغير فيه الرؤية.. تتجزأ الأشياء.. تتقزم كينونته، يضطرب كائنٌ غريب عليه... لم يشعر به من قبل، يتحسس صدره، تصله قفزات الكائن المتلاحقة.. يظنها لحظة ميلاد جديد.. تتوه الرؤية تدور من حوله الأشياء برهة.. ثم تثبت، يوقن أنها لحظة خلق جديد.

خرج... رأى... تطلع... امتلأ رأسُه الصغير، ذرات من اللامعقول.. تتمدد.. تتبلور.. تصبح أسئلة:

- لماذا نحيا على الفضلات؟

- لماذا لا نحيا في كون وحدنا؟

- لماذا نعيش في محيط واحد مع من نتذلل لهم، نرقب أقدامهم في خوف، نتبع خطاهم في حذر؟

تتقافز أسئلته.. يضيق عقله بالإجـابة.. يستنكرها، يحاولون إكساب إجاباتهم أكبر قدر من الرصانة والإقناع:

- إنهم أساس حياتنا.. نشأنا على فضلاتهم.. مخلفاتهم، ندعو لهم بالخير كي تزيد أرزاقنا.

لكنه لا يتوقف عن طرح المزيد من الأسئلة، بينما تتسع أعين السادة، يرقبون بكل الحذر والتوجس نظراته، ثورته.. يسبرون أغواره.. فيرون القلب المختلج النبضات وعقله المحموم الفكر، تأخذهم رعشة قلق على حاضرهم، يخشون تقلقل كينونتهم، يحاولون إقناعه دون جدوى فقد أغلق عقله إلا عن هدفه الذي يختلج له القلب وتفور لأجله الدماء في العروق. يجتمع المجلس القلق، تستدير الدائرة لتنغلق عند الرئيس الذي يعبث في شواربه بتوتر وارتباك، يتناقشون في حدة وتوجس.. والمحور هو :

يبدأ أحدهم بصوت هادئ كأنه يحادث نفسه :

- إنى أرى في عينيه الخطر الأعظم.

مِن عنده تبدأ الأنظار ثم تسير ببطء في اتجاه الرئيس، تقف عنده، وكأنها سهام تتجه إلى عينيه فيرمش بأهدابه الكليلة، إلى رأسه، فتضطرب أفكاره، إلى شاربه، فيرتعش... وإلى فمه، فتخرج كلماته ضعيفة واهنة :

- إني أراه كذلك.

ويدلي طرْفه عند يديه المضمومتين، ثم يسكن وكأنه راح في إغفاءة عميقة، يصرخ النشط المتململ منذ بدأ النقاش:

- لقد امتلأ رأسه بالأحلام.. لقد بدأ يتطلع.. يتطلع !

وتبدأ منه الأنظار وببطئها المعتاد تسير نحو الصامت صمت الموتى والذي يستشعر بحكم العادة اتجاه الأنظار إليه، فيرفع رأسه العجوز بينما يخرج صوته الواهن :

- إنه تطلع بالفعل.

ترتبك الأعين، تتوه ما بين من يواجهها ومن يجاورها، بينما تتناقل الأفواه نفس اللفظ

- الخطر الأعظم.

يرفع يده المعروقة حتى تحاذي رأسه، فينتقل الصمت إليهم ويعم السكون أرجاء الدائرة، تتسع عيناه ببريق مخيف، يهمس ببطء شديد:

- الأمرُ جدّ خطير.

وكأنها إشارة البدء، لتنفلت ألسنتهم وتنطلق هادرة من أفواههم الكلمات :

- ما العمل؟

- يستبعد.

- كيف؟

- نقتله.

- نحاول هدايته فهو ما زال يحلم.

- لقد تجاوز حدود الحلم.

- لقد تطلع.

- فصل الخطاب يستبعد.

- لو بقي سيدمرنا.

- نطرده.

- أين يذهب ؟

- لا شأن لنا.

- الحل ما قلت.

- نطرده ؟

- كي نعيش في سلام.

- نطرده.

- نطرده.

يدور الجدل في تلك الدائرة، والرأسُ صامتٌ، فلا حركة ولا صوت، والعين ترقب ما يحدث في سكون، وعندما تصل دائرة الحوار إلى رأي مشترك مجمع عليه، يرفع يده بمحاذاة رأسه العجوز، ليعم الصمت أرجاء القاعة ويعلو نسبيًا صوتُه الوقور:

- يُطرد.

****

تحقيقٌ

أمام المحقق كان واقفًا، رافعًا رأسًا استسلم الأسودُ فيها للشيب المبكر، محدقًا في النافذة من خلال نظارة طبية رقيقة واضعًا يديه خلف ظهره، ضاغطًا بذراعيه جسدًا ناحلًا، كان يستطيع من مكانه أن يرى المدينة.. حركة الشارع، سيارة تسير مسرعة في عكس الاتجاه المرسوم، عجوز متهالك يفر من أمامها بعد أن يتخلى عن كل ما كان يحمله، بائع فلٍ شاب يتصيد السيارات عند الإشارة، يتبعه كظله طفل رث الثياب، يمد يده بعلب المناديل الورقية، رهط من الناس يهرولون وراء أتوبيس تخطى موضع وقوفه، يبتسم... التفّ بجسده ليواجه مكتبًا بسيطًا، تراصت عليه مجموعة من الملفات بينما تناثرت أقلام وبضع أوراق على جوانبه.. فنجان قهوة فارغ، وخلفه يجلس شاب في الثلاثينات من عمره حليق الوجه.. وسيم .. متأنق، يخلع بذلته الثمينة و يعلقها علي ظهر المقعد، يقطّب حاجبيه بابتسامة مصطنعة، مطرّزة بسخرية تطل من عينيه.. يسترخي إلى الوراء:

- ما الذي يضحكك؟

- أنا لم أضحك... فقط ابتسمت.

- إذن ما الذي تبتسم له؟

- نكتة .. تذكرت نكتة.

- اروها لي إذن... لم أضحك منذ زمن بعيد.

- إنها لا تضحك أحدًا غيري.

يرمقه بنظرة متحدية، يفك عقدة يديه، يفرك كفيه أحدهما بالآخر:

- حتى النكتة تريد أن تفلسفها؟

- هل من الممكن أن أفهم سبب وجودي هنا؟

- هل يضايقك وجودك معنا؟ التفت للمحقق:

- أكيد.

- هل سببنا لك إزعاجًا أو خللًا في المواعيد لا سمح الله؟ كانت نبرة السخرية بدأت تأخذ شكلًا أوضح:

- المفروض أني هنا للتحقيق معي. بسخرية أشد وبسمة عريضة لمع لها خداه الحليقان:

- من قال ذلك؟

- إذن دعني أنصرف؟

- ليس بهذه السرعة.

زفرة حنق تصدر من صدر محموم، بينما يعدل نظارته فوق أنفه:

- أنت مدرس؟

- نعم.

- جغرافيا؟

- نعم.

- أم تاريخ ؟

- لا.. جغرافيا.

- عمرك خمس وثلاثون سنة أليس كذلك.

بغضب مكتوم:

- أجل.

- ولم تتزوج إلى الآن؟

بفراغ صبر:

- بلى.

- لمَ ؟

- النصيب.

- أم أنك لم تجد من ترضى بك ؟

هو يعلم جيدًا أن تلك حيلة لإفقاده أعصابه ومن ثم جعله أقل صلابة في مواجهة المحقق.. لذا تمسّك بالشعور الفاصل بين الغضب والثورة عند حده الأدنى:

- ممكن.

- لم تعجب أنثى.. فكيف ستعجب الله ؟

- أستغفر الله العظيم.

- أنت مؤمن إذن.. هل تصلي ؟

- لا.

- لماذا ؟

- هذا بيني وبين ربي؟

- أنت لا عندك زوجة.. ولا تصلي .

ينهض المحقق ويدور حول المدرّس:

- هل لديك أصحاب.. أصدقاء ؟

- ربما.

- مثلك هكذا؟

- لا أفهم.. ماذا تقصد؟

يواجهه حتى تكاد أنفه تلامس ذقن المدرس الذي اندفعت الدماء إلى نافوخه حتى كاد ينفجر:

- والدك... حي؟

- لا.

- رحمه الله لم يحسن تربيتك.

آلاف الصور تمر في شريط حلزوني يدور و يدور.. تحذير زملاء العمل له .. نشرات الأخبار.. (هتلر) يخطب في جيوشه.. (كسينجر) يبتسم ابتسامة

واسعة.. برقيات العزاء تملأ صفحات الجرائد.. إعلانات تأييد.. فتيات الإعلانات.. سيارة فارهة تمر في شارع غارق بمياه المجاري.. تماثيل تنهار.. دماء خضبت كل الأعلام.. خريطة للوطن باللون الأحمر.. عِلْكَة (بريتني سبيرز) في مزاد علني .

الشعور الفاصل بين الغضب والثورة.. توارى فجأة تاركًا الثورة تعبر بالغضب حاجز السكون... لمعت عينا المحقق بدهشة وعدم تصديق بينما أصابع المدرس الرفيعة تلتف حول رقبته كالسوار .. صلبة.. متشنجة، يتهاوي جسده تحت قدمي المدرس اللاهث وقد تدلت نظارته عند أرنبة أنفه، يزفر في ارتياح...

****

غرفةٌ قديمةٌ مظلمةٌ

كانت هذه مملكتي منذ عشـرين عامًا، عيناي تجوبان أرجاءها.. تبحثان عن أثر قديم لكلمة كتبتها.. عن مكان علّقت فيه يومًا ملابسـي.. عن بقايا سجائر، كثير منها وُئِد عند كل خبط على الباب، لم أجد شيئًا يَذكُرُني.. لم أجد شيئًا يُذكّرُني بي. فجأة هبط عليّ وعليها ستار أسود، وكأننا سقطنا في قاع بئر عميق.

اعتدتُ هذا الظلام الدامس منذ اصطحبتُ زوجتي وجاري المُقْعَد ذات يوم كي نندس وسط أكوام اللحم البشـري، نطالب بالحرية، حينها وقبل أن تصيبني الرصاصة التي قتلت من يقف ورائي كنت أميل على جاري أوصيه بزوجتي.. كما أوصيتُ زوجتي به، للأسف.. لم أمت، و لم أجد مقرًا ألجأ إليه بعد أن فتح جاري المُقْعَد الجدار الفاصل بين منزلينا، وألقت زوجتي بمتعلقاتي عبر نافذة صغيرة.

- رغم أن الشـرفة واسعة ولكن يبدو أنها كانت ترتدي قميصها الميني الأسود حينها، و لعلهما كانا يمرحان عبر الردهة فوق الكرسي المدولب - فمنعها الحياء قطعًا.

لكن.. هل اعتادت حجرتي الظلام كما اعتادت الفراغ الهائل الذي يتنفسها الآن؟

كنتُ قد تركتُها لأقاربي عندما اضطررت للسفر، وأوصيتهم فقط بالمكتبة.

مِن تلك البلاد الغريبة و التي توزعُ التجاعيدَ مجانًا، بينما تلاعبني باللونين الوحيدين اللذيْن عرفتهما هناك، فتأخذ الأسود من شعري لتضعه في قلبي وتنزع الأبيض من قلبي لتضعه في شعري، أرسلتُ لصديقي الذي مات بعد ذلك بكثير- جرّاء مرض أصاب كبده- توكيلًا ليبتاع لي"مسكنًا" بحي متميز ونظيف وهادئ يناسب أعصابي المجهدة دومًا بلا سبب، ولأنه صديقي فقد كان المسكن مناسبًا له أيضًا فسكن به بدلًا مني حتى مات وتنازع عليه ورثته فيما بعد.

لم أعد إلى مسكني القديم، ولم أزُر أقاربي الذين رحلوا جميعًا، واستأجرت منزلا آخرَ قريبًا من سكن صديقي النظيف الهادئ، لذا لم أرَ غرفتي إلاّ الآن، أقصد قبل دقائق من الآن.. فما زلنا أنا وغرفتي نسبحُ في لُجة من ظلام دامس، ارتطم بجسدي جسدٌ نحيل في مثل طولي تقريبًا، لأول وهلة ظننتُ أن السبب هو تلك الحبوب التي أعطاها لي الشاب الطيب في الصيدلية التي تقع أسفل منزلي - الذي أصبح بيت المُقْعَد وتلك المرأة التي لم تعد زوجتي- عندما خرج يساعدني في لملمة ما تبقى من ملابسي، يبدو

أنه شعر بالذنب حين أخذ يتجاذب بنطالًا مع أحد الصبية طمع فيه.. فتمزق، لذا أهداني حبوبًا.. قال إنها مهدئة، فشكرته وابتلعت واحدة لديه والأخيرة قبل دخولي هنا وارتطامي بهذا الشيء الذي تشبه رائحته رائحة شخصٍ أعرفه، ليس معقولًا أبدًا أن يكون ما أشمه وأسمع ضربات قلبه وتلفح وجهي أنفاسه، مجرد خيال بفعل حبوب الصيدلي الطيب، هنا واتتني جرأة لا أدري مصدرها وزعقت فيه "من أنت؟

خرج صوته مذعورًا مبحوحًا كصوت صنبور يعلن عن عودة المياه إلى حنجرته اليابسة، نطق اسمه واسم أبيه وجده، ذكر اسمي أنا بصوت يشبه صوتي الذي أعرفه و أكرهه.

فبدا وكأن البئر تسحبني أنا والحجرة المظلمة والغريبة، وتغوص أكثر وأكثر حتى مركز الأرض الملتهب، ليت "الكهرباء" تعود الآن فتنقذني من النار التي تستعر في بدني ولكن هيئة أرصاد الكهرباء لا تعبث ولا تخلف موعدها، ولا يعنيها أن أرى وجه هذا الأحمق الذي يدّعي أنه أنا، فلم يتبقّ أمامي غير لغة اللمس، حاولت أن أبدو هادئًا ويداي تجوبان صفحة وجهه دون أن تكترث بأصابعه النحيلة التي تحاول منعي، ألمس تقاطيع وجهه... أسأله:

- ما الذي أتى بك هنا؟

- أنا لم أبرح هنا منذ زمن.. وهذه غرفتي. جفلتُ عندما لمستُها.. نفس الشعرة اللعينة النافرة التي أجبرتْني فيما مضى على حلق شاربي، كانت توخز شفتي دوما، إذن فالرجل لا يكذب.. إنه أنا، تمنيت أن أراني في النور.. قد تكون العتمة فتحت ممرًا بين حياتين، فخشيت إن ذهبَت أُغلِق، تمنيتُ أن أوصيني وأنا أعلم بضيقي من النصائح، تكاد الساعة تنقضي والشاب المرتعش يحدق في الظلام، أعلم أنه يفعل قطعًا.. فما كنتُ إلا لأحدق في غريب يزورني في عتمة مفاجئة، أردتُ أن أخبره ألا يترك غرفته وألا يسافر وألا يأتمن أحدًا على مكتبته.. و.. و.. ولكن في اللحظة الأخيرة، وقبل أن يهش المصباح الوحيد في الغرفة أسراب العتمة، هتفتُ به :

- حين تأتيك الرصاصة في الميدان ..لا تنحنِ.

****

بينَ البقاءِ و الحذفِ

"مزعج جدًا هو الانتظار حين نكون على عجل"..أعلم أن هذا شيء عادي، إذن من الممكن أن نحذف الجملة السابقة، ولكن حين يكون الانتظار داخل سيارة أجرة محشور بين أربعة أنا أنحفُهم، ساعة القيظ في منتصف صيف تخبرنا نشرة الأرصاد أنه لم يحدث منذ قرون، وحين يكون موعدي هو الأول بعد سنين مع مدرّسي القديم، الذي أكنُ له كل حب وتبجيل، وأن يكون سبب الانتظار "لجنة" من رجال الشُرْطة بينما يجلس كبيرهم تحت مظلة، قد يكون كل ذلك عاديًا وتظل الجملة الأولى متأرجحة بين الحذف والبقاء، ولكن أن يتحول فعل الحذف أو البقاء إليّ أنا بداية من فتح الجالس تحت المظلة ذراعيه وفمه على مصارعهم متمطيًا و متثائبًا في الوقت ذاته، ثم نهوضه متقدمًا نحو السيارة وعلى عينيه ساعات من الملل تحتاج لشيء يبدده، تخيّرني الرجل من بين الأربعة وابتسم ابتسامة خفيفة :

- أنت ..

أشرتُ إلى صدري متسائلًا

- أنا؟

أومأ برأسه وبنفس الابتسامة استدار مسرعًا إلى مظلته، بعد أن أشار للواقفين بالانصراف، إيذانًا بتحرك السيارة،

- بدوني؟

وكما أسمع من بعض أصدقائي ومعارفي لا تخلو تلك التحقيقات من حوار مستفز وأسلوب مهين، لا علاقة لي بالشرطة أو رجالها إلا في نادر المرّات التي تضطرني الأوراق الرسمية للذهاب إليهم، ترى ما الذي جعله يرتاب فيّ؟ أهو العرق الذي ينز مني بفعل الحشر وسط الثلاثة ركاب في الكرسي الخلفي، ونظاراتي التي تتدلى حتى أرنبة أنفي؟

هل عرف بميعادي مع مدرسي؟

تلك هي الكارثة إذن، فليذهب المدرس وميعاده للجحيم، سأدّعي أنني لا أعرفه، هل سأضحي بجلستي اليومية عند النهر وقد يصل الأمر إلى أيام أُخَر.. من أجل مدرس مجنون، رُفِضَ(رُفِتَ) من وظيفته لأنه استبدل كلمة "مسؤول" في الخطاب الموجّه للوزارة ب"مسطول"، لا.. سأقسم أني لا أعرفه، وأني لم أره منذ أن ربّت على كتفي بعين دامعة وأعطاني قلمًا ثمينًا هدية تفوقي، لا.. لا أعتقد أنه يجدر بي ذكر الهدية والدموع، فقط سأقسم أني لا أعرفه وأن اتصال البارحة كان على سبيل الخطأ.

أقف أمام كبيرهم متأبطًا حقيبة صغيرة أضع فيها بضع أوراق وقلمًا وعلبة السجائر، بينما بعض الشـرطيين صغار الدرجة وآخرون يحملون بنادقَ ينظرون إلينا وقد لاحت على وجوههم إمارات نشوة انتظار حدث مسلٍّ قادم، أشار بإصبع

– لا أدري كيف هو رقيق ونظيف هكذا وسط أتربة الشارع

– إلى الحقيبة المعلقة على كتفي، قبل أن يسألني :

- ما هذه؟

انتزعت ابتسامة عصية قسرًا...

- حقيبة؟

- ما الذي تخفيه بها؟

على الفور فتحت الحقيبة، أخرجت الأوراق والقلم وعلبة السجائر ثم قلبتها وسط دهشتهم جميعًا، فتح عينيه على آخرهما واتّسعت ابتسامته:

- لماذا فعلت هذا يا بني؟

ورغم أني أجزم أنه يصغرني بعقد على الأقل إلا أنني شعرت بنسمة خفيفة تلفح وجهي جفّفَتْ عرقُه، ابتلعتُ الغصّة التي تحجرت بحلقي وأجبته مبتسمًا:

- لا .. لا شيء، فقط للتأكد من خلوّها من ممنوعات.

- ولم كل هذا ؟..

لقد لاحظت مرورك في ميعاد متأخر عن هذا الوقت على مدار الأيام الفائتة.. وأنا أتابع كتاباتك ومعجب جدًا، وعندما وجدتك مبكرًا وجدتها فرصة لأناقشك في بعض الأمور.

ألقيت الحقيبة على الأرض أو وقعت لا يهم فقد أحسست أني خفيف، خفيف جدًا، إما أني سأطير أو سأفقد الوعي، أول ما خطر ببالي هو اعتذاري همسًا عمّا بدر من خيالي المريض في حقّ أستاذي ومعلمي الجليل، وأخذ عقلي يستجمع كل سباب عرفه أو مرّ عليه من خلال الأذن أو العين وأضاف إليهم من اختراعه حفنة لا بأس بها، وكالهم للجالس أمامي ينظرني بابتسامة عريضة، وقد تملكني شعور أني انتهيت للتوّ من الفوز على أعتى المصارعين الذين لا أحب مشاهدتهم في التلفاز عندما قرأت وبخط الثلث شعور الخيبة على وجوه أصحاب البنادق، زادهم خيبة حين أمر كبيرهم بكرسي وقهوة للأستاذ (يعنيني بالطبع).

وبما أني نجوت من فعل الحذف وقُدّر لي البقاء فكان لزامًا أن أعود للجملة الأولى وأنظر في حتمية وجودها بالنص، أنا بالفعل على عجل، فليس مجرّد اشتياقي للمدرس القديم هو دافع زيارتي، ولكن فضولي وبحثي عن تلك النماذج التي اختارت طريقًا من وجهة نظري تمردت فيه على القدر والقانون و...

- أين تذهب كل يوم بأوراقك وأقلامك؟

- النهر يا "افندم" مصدر إلهامي الوحيد..لا أستطيع – وهكذا اعتدت- أن أكتب إلا وهو قريب مني، كأنه الحبر الذي أكتب به، ما مدام النهر يجري فقلمي هو الآخر يجري. يبدو منبهرًا:

- لهذه الدرجة؟

- وأكثر يا "افندم".. النهر ملهم كتّاب العالم.. فلولاه ما كان شكسبير ولا ديكنز ولا المعرّي.

- مسكين أنت والله يا أستاذ تأتي كل هذه المسافة لتكتب أمام النهر.

وهز رأسه متأثرًا .. فهززت رأسي أكثر متفقًا ومؤمّنًا .

- ما باليد حيلة يا "افندم"..العين بصيرة..واليد كما تعلم.. لو أني أمتلك المال لاستأجرت سكنًا قريبًا منه.

- اسمع ... أين تسكن؟

- في قرية بجوار الصحراء الممتدة هناك.

نهض واقفًا واستسمحني أن أنتظره، نظرتُ للشمس مستجديًا إياها التريث.. بينما أفكر في مدرسي المتمرّد، ونهري البعيد.

كان الشرطي يتحدث في "اللاسلكي".. والآخرون منشغلون بالنظر إليّ وأنا ألملم ما أفرغَته من حقيبتي وأعيده إليها ثانية، حين دوّى ذلك الانفجار.. فألقاني عدة أمتار بعيدًا، صرخ كل شيء فيّ إلا حنجرتي،.. وعيناي تنظران إلى سيل الطلقات التي تخرج من فوّهة سلاح لا أعرف اسمه لكني عرفت اسم صاحبه فقد كان مدرسًا يرسم على السبورة نهرًا كالذي أجلس عنده كل يوم، رأيته الآن ينساب أمام عيني بنفس التوقيت تقريبًا و لكن بلون مختلف، وحين تضامن دمي ليدعم تدفّق النهر.. أيقنت أنني لن أستطيع تغيير الجملة الأولى.

****

انسحاقٌ

أيام مرّت على هذا الحال المخزي، أجلس واضعًا يدي على خدي، تتهدّل أجفاني على عين تقاوم النعاس، أنظر إليها وهي تتأوّد صامتة، تمتزج فيها الرغبة بالخجل، لا تفُه بحرف.. لكني ألمح خلف صمتها ألف صرخة، وألف كلمة عتاب، تأكلني الرغبة للتوحّد معها، لتلبية حاجتها، لكنّ شيئًا ما يحول بيني وبين الفعل أتركها على حالها، بينما أذهب وأعود، أمارس عملي بنصف عقل، والنصف الآخر معها، لا أرى في الشارع إلاّ كلّ نقيصة، هذا الرصيف الطويل تعلوه بعض أتربة، وفوق أوراق الشجر الخضراء بقع قذرة، حتى السماء لم يعجبني لونها هذه الصباحات، أحسسته باهتًا مملًا أتأمل المارة في الشوارع بنصف عقل ونصف عين، فأنقم على المبتسم، وألعن هذا الصاخب المقهقه، أردّ التحية لمن ألقاها بمزيج من القرف والغضب، تراودني رغبة في شجار عنيف أفرّغ (بتشديد الراء أم بكسرها؟) فيه ما تكلّس داخلي من غلّ، وكلما عدت إليها وجدتها على نفس حالتها من الصمت والانتظار و الأمل، وكلما طال أمد انتظارها زاد انكساري وخوفي من إنهاء الرباط المقدّس الذي يربطني بها .

ذهبتُ إلى الطبيب وأنا غير مقتنع ولكنها كانت الخطوة الأخيرة، بعدما جرّبت الرياضة، و الأعشاب الطبية، وكل ما سمعته من نصائح، لا شيء يجدي.. لا وسيلة ذات نفع مع هذا التهدّل والارتخاء اللذين أصبحا ملازمين لي في صحوي ونومي، نتج عنهما عصبية زائدة وحساسية مرضية من أقل الأصوات، حتى ملّني أصدقائي.. وفرّ عملائي في العمل، تنحى الغضب بداخلي حين فاجأني خلاء "العيادة" من الروّاد، ورغم أن ذلك قد يكون دليلًا على قلة خبرة الطبيب، لكني اطمأننت إلى أني سأدخل مباشرة دون انتظار، استقبلني بوجه مبتسم مضيء، لعله بفعل الإضاءة العالية بحجرة الكشف، رفعت له يديّ وأنا أشير إلى رأسي، وأغمض عينيّ، بدون أن أنطق حرفًا، وحين فتحت عيني حاولت أن أضع فيهما كل ما عانيته وكل ما أرجوه .

بادرني بصوت هادئ رتيب :

- اطمئن إن شاء الله ستكون بخير .

يطقطق على لوحة المفاتيح المتصلة بالحاسوب، بينما عيناه على شاشة مسطحة،

- منذ متى وأنت هكذا؟

- شهران؟ لأ... ثلاثة، نعم نعم ثلاثة أشهر .

أخذ يسألني عدة أسئلة لم أدر ما علاقتها بحالتي، ولكني متشبثًا(متشبثٌ أم...) بالأمل الوحيد المتبقي لي أجبته عليها جميعًا، ثم طلب مني النوم على "الشيزلونج".. أجرى فحوصات عادية جدًا، كالتي يجريها طبيب "الأمراض الباطنة"، وضع سماعته الطبية على مناطق متفرقة من بطني وصدري ثم ضغط بيد باردة على مناطق أخرى:

تفضل.

أحسست برجائي في الشفاء يتبعثر أمام دهشتي من حيادية وجهه، كتب بعض الكلمات على ورقة صغيرة.. مدّها لي سألته:

- ما هذا؟

مبتسمًا:

- بعض الفيتامينات والمنشطات.

-فقط؟

-و...لا تشاهد التلفاز هذه الفترة على الأقل.. أسبوع.. أسبوعين، ليتك تسافر في رحلة استجمام.

-لدي ارتباطات عمل تمنعني من السفر.

-حاول تغيير أوقات النوم..صدقني ليس لديك أي مرض عضوي..

انصرفت من عند ه وأنا ما زلت على حالتي، حتى اصطدمت به، كان يحمل جوالًا ثقيلًا اهتزّ جسده من وقع الصدمة لكنه تشبث بجواله، ومال عليّ بكل ثقله، ورغم أني أجزم أن السبب في الارتطام كان شرودي وعيني الغائمتين إلا أنه فاجأني بابتسامة حنون، واعتذر لي، تأملت ذلك الهرِم الذي تركني وأكمل طريقه بينما ساقاه ترتعشان تحت ثقل حمولته، وفجأة شعرت ببركان يتحرك داخل قلبي، تبعته دمعتان انزلقتا على خديّ، التمع شيء ما برأسي، وجدتني أسرع الخطى نحو البيت، منتشيًا.. أعددت قدحًا من القهوة.. نزعت نصف ملابسي، وجلست أمامها مشتعلًا بطاقة شملت كامل الجسد، مستلقية كسيرتها الأولى مذ عرفتها، تنتظر، أشعلتُ سيجارة.. وهممت بها، فالتحمنا في بوتقة حب لم نشعر بذواتنا إلا وهي متخمة بالامتلاء وأنا اتكئ على مقعدي ترتسم على محياي آيات الحبور.

****

المـرافـعـةُ

يرنو طويلًا إلى هذا الكائن المنتصب أمامه كتمثال، يحاول فكفكة روحه من تعلّقها، بإلقاء نظرة خاطفة (نحو - إلى - على / أيهم اكثر صحة؟)

إلى القفص، ولكنه سرعان ما يستجيب لنداءٍ خفي، فيترك عينيه تحطّان كعصفور كاد الظمأ أن يقتله، على الكيان الملائكي، فينهل من نبعٍ صافٍ رقراق، يبلل حنجرته بلعاب يزدرده خطفًا كي لا يلحظه أحد، بينما عصفوره العابث اللاهي لا يردعه رادع عن التجوّل بأنحاء هذا الوجه الوضّاء، وهو يتنقل بينه وبين أوراق ينظر إليها فيترك لجفنيه فسحة من الوقت، كي تنام لتكتمل الفتنة، وتستمر الروح في تعلّقها، يرتفع الهدبان فجأة فيجفل، ويحاول الهرب بنظرة خاطفة أخرى نحو قفص المتهمِ...
تمنّى في تلك اللحظة أن يكون مكانه، أن يحظى مثله بكل اهتمامها، أن ترمقه بنظرة كتلك التي ترمق بها موكّلها، يجلس على منصّته متوسطًا زميليه، مواجهًا جمهورًا عريضًا يهابه وينتظر كلمته، وهو ينتظر منها فقط.. نظرة، عيناه كعصفورين تتمسّحان بأنفها السامق كأنف "أفروديت".. وخداها الأسيلان(خديها الأسيلين - باعتبارها معطوفة على ما سبق؟) كالمرمر، وشفتاها المحيّرتان (وشفتيها المحيّرتين) اللتان(اللتين) تحركهما

علوًّا وانخفاضًا، تنضمان فتنسحب روحه منه ليموت برهة، تنبسطان.. فيعود، عقود مرّت وهي ترمزُ للأنثى في مخيّلته، حين كان يحكي له جده حكاية "ست الحسن"...كانت هي، وحين سمع عن عروس البحر.. لم يكن يتخيّل غيرها، وكلما قرأ عن امرأة تخلب ألباب الرجال، كانت صورتها الأقرب والأمثل، حاضرةً هي بذهنه في كل أخبار النساء.

منذ مولدها وهي حلوة، بطعم الفاكهة التي كان يأكلها في بيتها الواسع المرتفع عن أرض الشارع، بحديقته الصغيرة التي تحيطُه من ثلاثة جوانب، يومها كان يلهو كما اعتاد كل صباح بجوار السور حين دعته صاحبة البيت الجميلة، كي يشارك أطفال الحي في احتفال "سابع" مولودتها، فأحب الاسم الجديد "غيداء"، كما أحب البيت الكبير بلونه الأبيض وأبهته، وأرضيته اللامعة والنجفة الكبيرة التي تتوسط القاعة الفسيحة بداخله.

وحين عاد إلى بيتهم البسيط، جلس على حجر أمه وأخذ يتأمل حوائط منزلهم، وبابور الكاز الذي يئن تحت حلة الكرنب، فتنهّد حزنًا وكره الكرنب.

لا يذكر طفولته قبلها، ولا ملامح لألعاب طفولته إلا بها ومعها، كان حصاد يومه يربو.. وينام قرير العين، إذا مرّ اليوم وقد حظي بلمسة من يدها ولو صدفة، خربشاته الأولى في الشعر كانت كلها لها، وأول صفعة كانت

بسببها، حين ضبطه المدرّس شاردًا في منتصف قصيدة يكتبها، على ظهر كتاب.

كم مرة وقفت كلمة "أحبك" على حافة لسانه دون أن يجرؤ على نطقها، لعلها بعدد النظرات التي كان يرنو إليها بها، أو لعلها بعدد الثواني التي مرّت وهما يلعبان معًا أو بصحبة أطفال الحي.

لذلك تخيّر القسم الأدبي من أجلها، ودّ لو أصبح شاعرًا.. ليبوح بما عجز لسانه عن قوله، فأراد دراسة كل الشعراء منذ اخْتُرِعَ الشعرُ حتى مولدها، لكن أباه أصر على دخوله كلية "الحقوق"، كان لإصرار والده الدافع الأول لتغيير رغبته أما الدافع الثاني فكان غياب ملهمته وابتعادها مع أسرتها عن الحي بأكمله، بل عن المدينة كلّها، نظرًا لانتقال والدها لدرجة وظيفية أعلى .

ندم حينها على كل فرصة واتته، ولم يقل فيها "أحبك"، لم يغب وجهها المليح عن ليله المسهّد، ولا عن صفحتَيْ كتاب يقرأه، حتى تخرّج من الجامعة بتفوّق، دون أن يذكر أيّ وجه لفتاة زاملته أو التقاها في وسيلة مواصلات، أو حتى سكنت بجواره في المدينة الجديدة التي انتقل إليها، لم يكن يرى غير عينيها تصحبانه في حله وترحاله، عيناها ترمقانه بدهشة، وخجل، صمتٌ مهيب يخيّم على القاعة، مئات العيون متعلقة بوجهه الساكن

كصنم، المتهم اقترب في داخل قفصه من المنصة، فاغرًا فاه، متشبثًا بالسياج الحديدي، يحاول أن يستنطقه.

نظر إلى أوراق أمامه بعيون زائغة، هزّ رأسه.. أخرج منديلًا، جفف عرقه، ابتلع ريقه، نظر في عينيها.. نظر مليًا ،ثم... قال بصوت متهدج:

-أستاذة غيداء ..أحبك .

لم يلتفت للضجة التي هزت القاعة.. هتف قبل أن ينهض منصرفًا:

-رُفِعَت الجلسة.

****

الثقبُ

لا تزال يده تضغط على بقايا السيجارة الفانية حتى يتأكد تمامًا من موت شعلتها، بات حريصًا جدًا في الآونة الأخيرة ، منذ أن تسبب "عقْب" مارق في احتراق غرفة نومه بالكامل، حزن يومها على ألبومات الصور التي تجمع عائلته وأصدقاءه، وبدلتين يتيمتين كانتا تستر انه في المناسبات، لكنه حمد الله أن النار لم تطل الردهة التي تحتوي على مكتبته وتاريخ حافل باحتفاءات وتكريمات، كانت مبعث فخر.. ثم باتت مصدرًا وحيدًا لسلواه، بعدما انفرط عقد طالما زان أيامه ولياليه.

فتلك الشهادة على اليسار دق مسمارها وثبّتها على الحائط "محمود عبد المولى" بنفسه حينها كان يمازحه:

- جدران بيتي يتيمة من شهادة... وحائطك يكاد ينهار من ثقل ما عليه.
ثم يقهقه بصوته الذي لم يعد يسمعه إلا في وسائل الإعلام،
وهذه قام بشراء إطارها الذهبي صديقه وتوأم روحه "علي العمّاري" ابتلعته دوامة الحياة منذ زمن، لم يَعد يُرى.

تغطى الحائط بالبراويز المعلّقة بخيط مثبت بمسمار، كان يفضّل تلك الطريقة بدلًا من وضعها في دولاب أو على رفّ، هكذا كان يتاح للزوّار

رؤيتها، هكذا كان يستمع لدقدقة الشاكوش جاره الضرير فيعلو صوته متهللًا:

- مبارك يا أستاذ.

كم مرّ من زمن منذ زاره أحدُهم، آخر من زاره كان ساعي مكتبه العجوز، أخبره أنه لم يعد يخشى الموت بعد أن زار بيت الله الحرام بمساعدة ابنه الذي يعمل هناك، وبعده لم يطرق بابه إلا ابنتا أخته اللتان اعتادتا زيارته كل أسبوع، تنظفان المنزل و تعدّان وجبة تكفيه لأسبوع.

لم يكن يسمح لأيّ منهما بالاقتراب من حائطه أو مكتبته، فقط هو... وفرشاة تنظيف ناعمة.

يمر بها كل فترة على البراويز المتراصة، تستغرقه العملية ساعة ربما أو أكثر وهو يزيل الأتربة الخفيفة...وعند كل برواز يقف برهة، يجترّ الذكرى فيشرد معها، لم يعد ينسى "نظارة القراءة" ومع ذلك عليه أن يقترب أكثر حتى يكاد يلتصق بالحائط، ولم يعد ليقدر على ممارسة مهمته تلك دون الاستعانة بعصا غليظة، فاجأه ذات مرة ثقب في أعلى ركن على اليسار من الحائط، لا يذكر من أين جاء ولا متى.

هل كان معدًّا لشهادة لم تجئ؟

فأين مسماره إذن ؟

كلما وقف ينظف براويزه ويتأملها، تحضـره ذكراها ولا يغيب عن عقله شيء، ما عدا هذا الثقب لا يجد له في ذاكرته أي صدى.
اليوم وبعد أن أطفأ سيجارته جيدًا، لم يكد يلتفت لحائط البراويز حتى ارتدّ هلعًا وامتقع وجهه المليء بالتجاعيد واتسعت عيناه، حين وجد الثقب ينتشـر على الحائط ويمتد.. يبتلع البرواز تلو البرواز.

****

طبيبٌ حالمٌ وطائرٌ حزينٌ

كنتُ ذات ليلة أسير في شارع مظلم لا أعرفه، صدمتني آلية ضخمة.. فتمزقتُ أشلاءً أتعبَت بعضَ المارةِ الأخيار في تجميعي، تصادف أنّ طبيبًا شابًا حالمًا يعيش منعزلًا في الجوار، ينبعث من مسكنه ضوء خافت وصوت ملائكي.

وضعوني على طاولة العشاء المستطيلة.. وولّوا مسرعين، أشفقت على الشاب المسكين وهو ينفث من "غليون" أنيق معلق بفمه سحائب دخان خفيف أنعشتني، فابتسم فمي رغمًا عني.. يبدو أنه كان سعيدًا بقدرته على الابتسام.

كان الطبيب يهرش في شعره الناعم ويقلب وجهه في القطع المتناثرة، يقطب جبينه تارة ويفرده تارة، يغمغم يـائسًا تارة، ويتأوه متضامنًا أخريات، لن أكون غاضبًا منه لو تركني حتى ألفظ آخر شهقة من القلائل المتبقيات، ولكني صليت في سري أن ينجح... لأنه يستحق.

ولم يكن بيدى الملقاة عند قدمي حيلة لأساعده بها، ولذا سُرّت جدًا أجزائي حين فرك يديه الرقيقتين وغسلهما بالمطهر جيدًا ثم ألبسهما ذلك "الجوانتي" المطاطي الأبيض، وشرع ينظف الدماء بخرقة كبيرة ثم بقطع

صغيرة من القطن، وراح يطلق صفيرًا متوائمًا مع الأغنية الصادرة من "الريكوردر" الأنيق على الرفّ وسط كمية من الكتب الإنجليزية والألمانية والفرنسية وقليل منها باللغة العربية، فطن عقلي وهو يطل من الثقب الواسع في مؤخرة الجمجمة أن الوقت سيطول به، فجروحي خطيرة وتكاد لا تجد قطعة مكانها، فأخذت عيني الملقاة على جانب الطاولة تراقب المكان الذي ينم عن ذوق رفيع في اختيار القطع وفوضى عارمة في ترتيبها، لمَحَت قفصًا ملونًا جميلًا ملقىً أمام "الحمّام "يتناغى بداخله طائران رقيقان، لم أتاكد من نوعهما،... استعنتُ بعيني الأخرى فالأولى يبدو أن شيئًا ما أفسدها و الثانية كانت قريبة أكثر من المطبخ الذي تصدر منه روائح مخلفات وبن وشاي ولا أثر لرائحة الطعام، وعلى حوض الغسيل يقبع كتاب مفتوح لمحت على جلدته صورة لرجل بلحية كبيرة وصلعة أكبر، لم أستبن اسم الكتاب، كان باب "الثلاجة" مفتوحًا على آخره.. رأت عيني هناك بعض المعلبات والأكياس وبرطمانين أوثلاثة بهم قطع لحم تعوم وسط مادة صفراء، أظلمت الدنيا للحظات أو هكذا خُيّل إليّ حين أفقت وأنا ملقى على سرير، لا أدري كيف انتقلتُ من المائدة إليه، ولكن حين حاولت تحريك يدي وقدميّ ولم أر أي أثر للدماء، أدركت أني جئت إلى هنا جسدًا كاملًا نظيفًا.

الشمس ترسل أشعتها الذهبية من النافذة الغربية، وكنت أشعر بوهن شديد وحلقي جاف، أدهشني أنني نهضت بسهولة.. هتفتُ بجزل طفولي "يا لك من طبيب عبقري.. أيها الشاب"، لا أثر له في المنزل ولكن توجد بعض بقع دماء على مائدة الطعام.. بجوار غليون أنيق، وفي السلة المقلوبة في ركن قصيّ قطع قطنية دامية، توجهت مباشرة للمطبخ.. اختفى الكتاب الضخم و"الثلاجة" ما زالت مفتوحة، كان البرطمانان مكانهما ولكنهما فارغان، شربت جرعة ماء ولم أُشبِع عطشي حيث تنامى إلى مسامعي صوت جلبة غير بعيد، في طريقي للباب اصطدَمَت قدمي بالقفص الملون، انقبض قلبي حين وجدت طائرًا واحدًا مكوّمًا في الزاوية.. يبدو عليه الحزن، من زي الرجال وعرباتهم بالخارج تبين لي أنها الشرطة.. ونفر قليل من العامة، منعوني أن أجتاز السياج المحيط بالآلية التي تقف في منتصف الطريق، سألت أقرب الملتفين حولها عمّا حدث.. أخبرني وهو يهز رأسه بحسرة:

- هذه الآلية صدمت فتاة في مثل طولك بالأمس، كانت تجري مهرولة من هذا المنزل القريب.

أخذت أعبث بلحيتي الكثة وأنا أتأمل منزل الطبيب الشاب وأسأل نفسي بدهشة:- أين ذهب هذا الطبيب العبقري؟

سيرةُ التفاحِ

جلسنا على طاولة مستطيلة، لا أحد منا يستطيع النظر إلى من يجاوره أو يفه بكلمة.. إجلالًا وخوفًا، فقط.. ريق جاف وجسد مبلل بالعرق..
وعيون شاخصة نحو كيانه المهيمن ووجوده المشعّ على كرسيٍّ استقرّ وَسَط إيوان فخم، أشار بيدٍ كأنها الشمس يلمع الأصفر فيها فيَغشي العيون، على إثر إشارته... وضع زبانيته أمامَ كل واحد منا تفاحة أخرجوها من الزنابيل التي كانوا يحملونها، حاولتُ أن أتذكر آخر مرة رأيت فيها التفاح في السوق، ولكني لم أفلح، من أين لي بالتركيز وهو يرمقنا بعينيه الثاقبتين وكأنهما تخترقان الصدور.

صباح اليوم كان الرسول يسلمني- مبتسمًا- دعوة.. عليها اسمي وجملة :
"يدعوكم سموه للقاء عاجل في قصره مساء اليوم"

ممهورة بخاتم الرئيس، ينصـرف تاركًا الباب وعينِيّ على اتساعهما، فلم يناد منادٍ أو يُعَلّق منشور بمناسبةٍ حلّ عيدها، أو احتفال قريب، ثمّ إني لست مِمّن يُدعون في مناسبات العامة، وهذه دعوة للخواص، فما سر هذه الدعوة؟

حاولت أن أسترجع أقوالي في المقاهي.. الحوانيت.. الأسواق.. و بين أهلي في المنزل.

لم أجد فيها جميعًا ما يُحْمَد أو يُذَم ، أقوال عادية عن حرارة الشمس صيفًا وبرودة الأرض شتاءً، أو عن ذكريات الطفولة وذكر محاسن الموتى، وأحاديث متفرقة صغيرة عن متاعب المهنة، لا شيء يُغضب سيادته فيستدعيني ولا يبهجه فيدعوني، شغل التفكير بالي طوال النهار، خرجتُ من داري عند مغيب الشمس مشوّشًا متحيّرًا، زاد من دهشتي أنني لم أكن وحدي، فكل رفاقي الذين أقابلهم صباحًا في العمل أو مساءً في المقهى، رأيتهم جميعًا يرتدون أفضل ما لديهم من ملابس ويولون شطر القصر الكبير.

التفاحة أمامي فماذا أنتظر؟

السكين أم أمرُه بالهمّ؟

لا يشغلني التمعن فيها، بلمحة عرفتُ أنها نضرة.. طازجة و.. حمراء، كلون عينيه الآن، وكأن آتونًا اشتعل للتوّ فيهما.

قلبي ينبض تحت البلاط الرخامي المصقول، يهتز المقعد الخشبي الذي أجلس عليه ويهتزّ معه كل من جاء معي من تلك البقعة المظلمة في المدينة.
التفاحة والكرسي والزبانية راسخون، وكل ما حولنا يهتزّ ...كم لبثنا نهتزّ؟

لا يهم فقد توقف كل شيء حتى العرق تجمّد في مسامه، عندما أشار بإصبعه السبابة يتبعها كل ذراعه الضخم إلى التفاح المتراص أمامنا، ثم نطق لأول مرة في هذا اليوم الغريب منذ مطلعه:

- التفاح ..هذا الذي سألتم عنه في يوم السوق قبل الماضي، أليس كذلك؟ ثم صمت، سكن كل ما فيه إلا الأتون المشتعل يرمقنا واحدًا واحدًا. مَن الملعون الذي سأل عن التفاح.. هو إذن استدعاء وليس دعوة، هل شاركتُهم حديث التفاح في السوق؟

لا أذكر.

ربما بدا على عيني حنين؟

****

محروسٌ

- حق الوطن.

رنّت الكلمة في أذنه كـ"يد هون" نحاسيّة تطرق صندوقًا من صفيح، مال برأسه قليلًا للأمام، استطالت رقبتُه وبدت كأفعى ضخمة تخرج من جلباب ريفي متغضّن، يفتَح فمه عن آخره تقريبًا.. ليبين خواءً خلّفته أسنانه الثرمة.

- ها.....؟

- الوطن ...ألا تحب الوطن؟

- ماذا يعني يا بيك ؟

- هذا الذي يُؤويك وتعيش على أرضه وتأكل من خيره.

- واحدة واحدة فأنا لم أتعلم مثلك، وأذناي لا تجيدان وظيفتهما.

- يا "محروس" ...أين تعيش؟

- على الترعة في "خص" صنعته من "بوص" الذرة منذ أعوام كثيرة مضت.
- ماذا تأكل؟

- عندي "جاموسة" واثنان من الماعز وقيراط أرض..ما أزرع يكفي يا بيك.

بنفاذ صبر:

- ألم تمرض؟

- كثيرًا.

- ألم تذهب إلى مشفي؟

- ذهبت مرة إلى الوحدةالصحية، أعطوني حبوبًا بيضاء لم أستعملها،
يضحك ضحكة قطّع "البلغم" أوصالها:

- الشافي هو الله.

- يا "محروس" لا شأن للدولة بكل هذا، للدولة حق عليك.
- حق نعم .. نعم يا أفندم

وعيناه تتأملان خيوط وتعاريج ظهر يديه وكأنه يقرأ منها:

- مات جدي في "القناة" وأخي في 67 وولدي في الكويت، وأنا كما تعلم عاجز أمشي على ساق ونصف.

وكأنه تذكر شيئًا للتوّ:

- ولكني تطوعت فى الدفاع الشعبي زمان ... بعد النكسة.

- أين أولادك يا حاج "محروس"؟ ...أريد أحدهم لعله يفهم ما أقول.
- آه يا بيك ... الله يسمع منك ، كان عوض سيأخذني هناك عند النبي قبل أن يأتيني معبأ في صندوق.

يمسح بكمّ جلبابه.. دمعة انزلقت في أخدود غائر على خده:

- وأين الباقون؟

- لم يبق غيري ..." شر البقر أنا يا بيك".. الأخير مات بالكبد منذ عام.
لا ندري هل اكتمل التحقيق مع محروس أم لا.. فقد اختلفت الروايات وكثرت الشائعات، أخبَرَنا أحدُهم أن المحقق قام بتكبيل محروس و وضعه في السجن لعدم سداد قرض البنك الزراعي .. فالقانون لا يعرف محروس".
بينما قال راوٍ آخر: " أن المحقق ترك مكتبه وقام بتقبيل رأس محروس وتبرّع له بمبلغ مالي... لأن الوطن يعرف محروس"
في كلتا الحالتين لم يعد محروس أبدًا إلى "خُصّه".

رحلةٌ إلى السوقِ

حركة دائبة وزحام، أرى وجوها أعرفها حق المعرفة ..ووجوهًا أظن أني أعرفها، أقف في المنتصف يتصبب جسدي عرقًا تصطك ركبتاي، لا أحب الأماكن المزدحمة، كنت أتحاشى دومًا التجمعات وإذا اضطررت للسير وسط تجمع..يصبح "عرقي مرقي " وتتعثر خطواتي، فاعتزلت مناسبات الناس في السراء والضراء.

وها أنا كعادتي أتخبط في خطواتي ويُهيأ لي أن فردتيّ بنطالي يلتصقان ببعضهما فيعرقلان سيري.

بم أبدأ؟ وبمن أبدأ ؟..ماذا أشتري؟ وكيف أُعرض بضاعتي؟
وقفتُ قريبًا من إحدى الخيام الهادئة نوعًا ما، كنت قد أنهكني التفكير واستحضرت صورة قديمة في ذاكرتي.. فضضت أوراقي، أخذت أقرأ بصوت هادئ مضطرب سرعان ما بدأ يعلو وأنا أتحاشى النظر في العيون.
لمحتُ بطرف عيني أقدامًا لشخص أو اثنين ثم ثلاثة حتى تكوّنت حلقة حولي، زاغت عيناي وأنا أشعر بغبطة تغمرني "ها أنا قد نجحت".
تنتفض الأوراق بيدي وأنا أستحضر صورة جدتي وهي تشير إلى شعر رأسي المهوّش وتصرخ:

- تبدو كالمجانين تمامًا... قريبًا جدًا ستكون أحد روّاد مستشفى المجانين.
كانت تدخل ثائرة إلى غرفتي ..تتأفف من رائحة السجائر..ترفع بيدها "مقدمة بن خلدون" تلقيها جانبًا غير مكترثة..وتبدأ عراكها شبه اليومي وهي تسدي لي نصائحها المعتادة :

- انزل يا ولدي للناس..افرد وجهك واضحك معهم ..فرِّج عن نفسك وعش كبني جَلدتك.

- انزل للناس.

تسلل صوت رجالي هادئ يختلط بصوت جدتي مكررًا قولها ..أفقت على وجه يبتسم وكأنه يعانقني ...اقترب وصافحني كان برفقة أصدقاء له.
شدّ على يدي وربت على كتفي متابعًا:

- كما قلت لك بضاعتك جيدة ولكن ينقصك الاقتراب من الناس.. حتى تَرُوج.

تأملته قليلًا بأمل ودموع تترقرق في عينيّ.. أردت أن أخبره أنّ خبرتي ليست جيدة بالأسواق وأن ما لدي مجرد مخزون استخلصته من سنين الحبس الانفرادي الاختياري، عرفت فيها تجّار الشرق والغرب والوسط، تحاشيت تقليد أحدهم وابتعدتُ عن أماكنهم حتى لا تتهمني نفسي بالسطو والادّعاء..كان لدي الكثير لأقوله عن نفسي، ولكنه وأصدقاءه لم يكن

لديهم الوقت لاجترار الذكريات.. فلدى كل منهم بضاعة يخشى عليها الكساد ويسعى لبيعها.. شعرت بامتنان عظيم لهم فقد كانوا أوّل من التف حولي واستمع إلي وقلّب في بضاعتي، تاركين كل هذ الزحام من أجلي، فقط من أجلي.. ولهذا بقيت في السوق، أبيع وأشتري.. حتى نسيت عالمي الذي جئت منه، وأصبحت أسيرًا لعالمه.. ولم أرحل.

****

موعدٌ

حزم حقائبه بعد أن حشاها بكل ما قد يحتاج إليه هذا اللقاء الهام، والمصيري بالنسبة له، راجع في عُجالة تاريخ كل شخصية ممن سيلتقي بهم؛ كلهم عظام.. تاريخهم مجيد.

الطريق إلى مقرّ الاجتماع طويل ووعر، لم يقبل أيّ سائق الذهاب إلى هناك، اضطر أن يذهب محملًا بحقائبه الثقيلة سيرًا عبر شارع طويل مليء بالعثرات والعراقيل، لم يثبط همته العائدون جريًا أو حبوًا، ولا النظرات المعاتبة، أو التعليقات الساخرة، لم يثنه برد أو قيظ،
كان المبنى الشاهق الارتفاع يلوح في الأفق أقصر منه، ظل يهرول حتى صار قزمًا يرنو للسماء، لا يستطيع رؤية آخر طابق في المبنى، كان يعلم أنهم جميعًا هناك في الطابق الأخير، يناقشون بهمس واسترخاء وحكمة، مصير العالم.

لم يكد يلج الصالة الواسعة حتى أطلق زفيرًا بصوت سمعه كل روّاد المبنى المتأنقين جدًا، لكنه لم يستطع كبح مشاعر الدهشة والسعادة التي تملكته بمجرد رؤية الأبهة والفخامة التي لم يتخيل وجودها على مقربة من المدينة المزدحمة بالبيوت القميئة.

منّى نفسُه بمستقبل مشرق، حين فتح له العامل مصعدًا زجاجيًا فسيحًا يكفي لسكن أسرة مكونة من خمسة أفراد بأسرّتهم ومتاعهم.
عدّل من هندامه وولج المصعد الذي أغلق عليه، بعدما ضغط العامل على الزر قبل الأخير، خيّل إليه وهو ينظر إلى الشارع عبر الواجهة الزجاجية أنه لمح جسدًا يهوي من أعلى، نفض عن عقله الأفكار السوداء وراح يتأمل المدينة وهي تتقزم وتلتئم مساحاتها رويدًا رويدًا، أدرك أن ما رآه في المرة الأولى لم يكن خيالًا، فها هو يرى سمينًا يضع ساقًا على الأخرى.. بفمه سيجار.. يهوي من حالق، وهذا الطويل أشيب الفودين الذي يقلب في مجموعة من الأوراق بيديه..غير عابئ بوضعه المقلوب وهو يسقط بسرعة البرق.

اقترب من الحائط الزجاجي حتى انبعج أنفه، وهو يراقب تساقط الأجساد، استقبله شاب وسيم مهندم بانحناءة خفيفة وابتسامة أنيقة، اصطحبه في ممر طويل نظيف، حتى توقّفَ به أمام باب عريض،
كانت آيات الدهشة والرعب والأمل تتصارع على وجهه، لم تمنعه ارتجافة كامل البدن من قراءة الجملة المكتوبة على جانبه " مجلس الإدارة".

هتف في سرّه:

- أخيرًا وصلت.

تلفّت وراءه.. لم يجد أثرًا لموظف الاستقبال، كان غارقًا في لجة دهشة وترقّب لذا لم يعِر ما حدث اهتمامًا، خطا خطوات للأمام وعيناه تمسحان أرجاء الغرفة الفسيحة، لا أحد هناك غيره... ،كانت المدينة تبدو كبقعة متسخة على زجاج النافذة المستطيلة ...اقترب منها حاول أن يحدّد موقعًا يألفه..... لم يستطع.

****

نهـرٌ

كتبت عن نهرنا العظيم كثيرًا فأُعجب الحاكم بما كتبته حتى أنه دعاني لقصـره الكبير المطل بطبيعة الحال على النهر، وشدّ على يدي وأجلسني على مقربة منه، وقدّم لي ما لذ وطاب من فاكهة طازجة لذيذة بيده الكريمة، ولكنه سرعان ما استشاط غضبًا وعلا صوته مناديًا بحضور الوزير والحكماء حين علم أنني لا أستطيع رؤية النهر من مكان إقامتي في الحي الفقير النائي من البلاد:

- ما الفائدة من النهرإذا كان أبناء الفقراء من شعبي لا يتمتعون بمنظره الجميل.

اجتمع بهم على عجل وحين ودّعني قال لي وهو يصافحني:

- من غد سيشـرع العمّال في شق نهر كبير كبير بالقرب من مدينتكم وستراه من نافذتك ..أعدك.

كعادتي كل صباح أحتسي قهوتي وألقي تحية الصباح على وردتيّ الجميلتين

- صباح الخير يا حمراء، صباح الخير يا بيضاء.

وعلى غير العادة أزعجني هرج ومرج وصراخ، نظرت من النافذة، كانت "اللوادر والآليات تملأ الأفق، وعربات الشرطة ملآنة عن آخرها بالمحتجين على تجريف الأراضي والبساتين وتبوير الزرع، والسيدات شققن ملابسهن وافترشن الأرض وأهلن التراب على رؤوسهن، وبعض طلقات نارية هنا أو هناك....

لكن ما طمأنني أن العمل في شق النهر لم يتوقّف، فعدت أتأمل وردتيّ وأنا أهمس لهما:

- لا تقلقا ..عندما يقرأون .. حتمًا كل هذا سينتهي.

****

اغتيالٌ

اتسعت حدقتا وكيل النيابة وهو ينظر إليّ بدهشة سرعان ما تحوّلت إلى ثورة من الغضب وقد انتفخت عروق جبينه ورقبته، وصاح فيّ بصوت عال أفزعني واستدعى الفرّاش والحارس القابع عند الباب:
- أنت مجنون ماذا فعلت؟

كان يشير إلى القلم المهشّم على المكتب وقد زادَ من فزعي أني خدشت أثناء تحطيمي للقلم سطح مكتبه اللامع وعلى ما أعتقد تمزقت بعض أوراق كانت بالمصادفة قريبة من موقع الحدث.

- سيدي..هو..هو المتهم الحقيقي، هو من حوّل حياتي إلى جحيم،بسببه وجدتني كلّ يوم في محنة، وكل ساعة في قلق، اليوم في مكافحة الإرهاب وأمس كنت في الآداب وأول أمس في الأمن العام، وقبله المخابرات العامة، بسببه تركتني زوجتي، وابتعد عني أصدقائي.. وتحاشاني جيراني، أكل عمري ولحس عقلي وتركني دون سند أو معين، انتقمت منه لأجل نفسي ولأجل الوطن ولأجلكم.. برهنت على توبتي بتحطيمه أمامكم، فأرجو المغفرة.
تأملني الوكيل مليًّا..صرَفَ الفرّاش والحارس، أخذ نفسًا عميقًا... عدّل من

رباط عنقه وبدلته، ثم جلس على كرسيه الوثير، أشار إلى الكاتب الذي يجلس على كرسي غير بعيد:

- اكتب يا بني ..لقد أمرنا نحن وكيل أول نيابة "--- " بحبس المتهمّ "----

---" أربعة أيام على ذمة التحقيق، لاتهامه فيما يلي:

- التهمة الأولى ..التعدي على مرفق من مرافق الدولة.

- التهمة الثانية.. تهديد السلم العام.

- التهمة الثالثة ..اغتيال قلم.

****

الساعةُ

بـاهظة الثمنِ تلك الساعة وثقيلة في يدي .. كم مرة حاولت أن أثني أبي عن شرائها، وعيناي تتأملان تلك الـ "كاسيو" ذات الأرقام الإنجليزية بإعجاب وأمل.

كنتُ قد تعلمت للتوّ الأرقام والحروف من قريبي الذي التحق بالمرحلة الإعدادية.

الحقيقة لا أذكر أنّ لساني نطق حرفًا واحدًا يعارضُ أبي في شراء "الأورينت" بعقاربها الملوّنة والأزرق يلوّن أركانها بلون مبهج، لكنها ثقيلة جدًا ومعصمي نحيل، زُمت كثيرًا وتأوهت.. لكني أبدًا لم أخبرْه، كانت تشبه ساعة يده التي لم تكن تفارقها إلا أثناء الوضوء.. يضعها في سيالة جلبابه الأبيض الناصع كلون وجهه، لعله إلى الآن لا يعلم أني لم أحبُ ساعتَه إلا على يدِه، وأني لمْ أكُنْ سعيدًا بهديتِه بمناسبة تفوقي الدراسي، ولكني – كالعادة – رضيتُ بها وهي واسعة جدًا وثقيلة جدًا.. عندما رأيتُ آياتِ الفرح باديةً على وجهِهِ، لكنّهُ يعلمُ حتمًا أنها ثقيلةٌ، وصوتُها مملٌ جدًا خاصةً أثناءَ الليلِ، ولذا حين عجزت عن سدادِ ثمن كتاب "النبي" لـ "جبران خليل جبران" لم يعلم أبي إلى الآن أني اشتريتُ بهديته

كتابًا ضخمًا وبه لوحات لا تقدر بمال بريشة جبران نفسه،
لا يعلم أبي من هو جبران، ولعله لم ير ذلك البائع البائس وهو يدفع عربة خشبية ثقيلة، أثقل من الساعة على مِعصمي، ونصف أسنانِه الأماميةِ مكسورة أو غير موجودة أصلًا.

- إنه عابرُ سبيلٍ يا أبي وقد أوصانا اللهُ بهم، وربما لن أراه ثانيةً وكتاب جبران نادر، ولن أستطيع شراءه من "دار المعارف" ولا من المكتبات ذات الواجهات الزجاجية؛ فثمنه باهظ جدًا هناك.

ورغم أن الكتابَ ثقيلٌ وضخمٌ وأكبرُ وزنًا من ساعتي، إلا أني كلّمَا تذكّرتُ أبي وهو ينظر إلى معصمي أرتعد، وكثيرًا ما كنت أستيقظ من نومي ليلًا، ندمًا أو خوفًا.. فربما توضأ أبي ثم سألني عن الوقت.
الآن.. أصبحتُ أمتلكُ ثمنَ الساعةِ وثمنَ كتابِ جبرانَ.. فكّرتُ أن أستردّ الساعة، لكني لم أعثر على الرجل وعربتة الثقيلة.. ولا أبي.
فقط.. بقي معي كتاب قديم وليل طويل.. وصوتُ الساعة.

****

أبـــو الســـعدِ

ليلة لم يطلع فيها القمر تلك الليلة من يناير وكأنها جاءت لتعتذر عن تأخر الشتاء.. فأتت باردة.. محمّلة بصقيعٍ قارس، غلّق أهل القرية أبوابَهم بعد صلاة العشاء، كَنّ الجميع فوق أسِرّتهم، يلتحفون كل أغطية متاحة، فقط .. قلة واتتهم الشجاعة .. أوقدوا أمام المنازل نيرانًا وجلسوا يتسامرون. وجدت الحَكايا التائهة طريقها إلى الآذان، ودبّت الروح في سِير العفاريت. حين رأى الجالسون حول النار أبا السعد يجري مسـرعًا وقد لفّ جسده ب كبرتاية*، أشعلت الأسئلة أدمغتهم التي لم تطلها نار قلاويح* الذرة. فأبو السعد لم يغادر منزله منذ المشاجرة التي نَشَبَت بينه وبين ولده الوحيد. (السعد).هكذا أسماه ..حين رنّت صرخته الأولى في أذنه وهو يخبر الجميع أن السعدَ قد جاء على يد مولوده الأول الذي انتظره خمسة عشـر عامًا.
– ما الذي دفعه للخروج في مثل هذه الساعة المتأخرة، الشتاء قارس وهو الذي اعتاد النوم بعد صلاة العشاء مباشرة؟

تساءل الجالسون.. وقد بدأوا يلوكون سيرته وسيرة ولده الذي أراد ترك والده والسفر إلى إيطاليا مثل لداته ممن سافروا وأرسلوا "دولارات" كثيرة لذويهم، حينها لطم (أبو السعد) وقد تجلّت على وجهه آيات العجز عن إقناع ولده

الذي صم أذنيه وبرقت عيناه بتحدٍ قاسٍ:
- لستُ أقل ممن سافروا ولن يثنيني شيء.

- يا ولدي لا أريد " دولارات"، أريدك أنت.. لم يبق لي غيرُكَ سَنَدًا، لا تتركني كأرض الخراب ينعق البوم فيها.. اجلس الله يهديك.
لكن الولدَ لم يجلس، بل وقف ماثلًا أمام عينيْ الأب كتمثال فرعوني، قُدّ من حجر.. كان يرى في نفسه الأهلية للرقيّ إلى مكانة أعلى هيأتها له الشهادة التي حصل عليها من الثانوية التجارية، فقد كان يصدّق حسّانًا صاحب الغرزة الذي أقنعه أن شهادته تلك تخوّله للحصول على عمل مضمون في إيطاليا.

لم يمنعه أبوه مطلقًا من الجلوس على الغرزة، تنصحه جارته أم "مينا" :
- "اقرص" على ولدك يا جاري، لن ينفعه حنانك.. يعلم ربنا كيف أخاف عليه مثل مينا.. المرحومة كانت أختًا لي وليست جارة.
فكان هدبه ينتفض وكأنه يحاول إقناع نفسه قبل أن يقنعها:
- أخاف والله يا أم مينا أُضَيقُ عليه فيشتّ وهو زرعة عمري، ألم يكفه حرمانه من حنان الأم وهو بعدُ لحمة حمراء.

لم يكن مجيء "السعد" ليغيّر من حال أبي السعد كثيرًا بل زاد ما به من الطين بلة، تواكب مولده مع صدور قوانين إصلاح زراعي جديدة ليتحوّل

من فقير لمعدم، ورحلت الزوجة تاركة جرحًا غائرًا وظهرًا محنيًا لدى أبي السعد لم تفلح السنون في مداواته.

رغم ذلك كان يتفانى في إسعاده، يشتري له أجود الأقمشة من سوق البندر، ويدس له البسكويت في سيَالته، وحين يعود ينادي عليه من بيت جارتهم أم مينا فيسحبه من يده بلهفة ويغلق باب المنزل بالمغلاق*، ويُجلِس ولده وهو يربّت على ظهره ثم ينتظر حتى يرى لمعة التَرَقُب في عينيه، يتبعها بإخراج البسكويتة فيفض غلافها وهو يغني ويهز كتفيه يمينًا وشمالًا.. حينها تلتمع عينا صغيره بلمعة الفرَح.

كانت لمعة عينيْ (السعد) هذه المرّة قاسية يتجرّع والده مرارتها علقمًا، فلا يستطيع أن يزدرد لعابه الذي سال على شفتيه فبلّل ذقنه وسال على رقبته مع سيل دموع لم ينجح كم جلبابه الواسع في كفكفتها، وهو ينحني على يديه يقبلهما ويرجوه:

- اخز الشيطان يا ولدي وابق؟

كانت عينا السعد معلقتين ب "حسّان" الذي يقف على مقربة يشير له بالإسراع، وهو يجذب الحقيبة التي وضع بها ملابسه وأغراضه من بين يدي والده التي تعلّقت بها، لم ينتبه للجرح الذي خلّفته قطعة حديدية بأسفلها في وجه (أبو السعد) الذي لم ينتبه لها هو الآخر، وراح يجرجر ساقيه

المنهكتين خلف ولده وهو ينادي عليه بينما يقفز الولد على الدرّاجة البخارية وراء حسّان.

منذ ذلك اليوم اعتزل الناس ولزم داره، لا يشارك في مناسبات القرية فرحًا أو حُزْنًا، لكنّ أذنيه تصيخان السمع دومًا منذ شروق الشمس و حتى غروبها لعلّ خطابًا أو خبرًا يأتيه.

في تلك الليلة لمح أثناء صلاة العشاء أحد أبناء القرية الذين عادوا من إيطاليا، فعزم على الذهاب إليه بعد أن تهدأ حركة السير.

حين فتح له الباب والدُ الشاب العائد لم يفاجأ به، وكأنه يتوقع قدومه، فدعاه للدخول فورًا، لم يكن عقل (أبو السعد) يستوعب كلمة من حديث جليسه، الذي أخذ يرحب به ويسأله عن أحواله، فقد كان منشغلًا بالتطلع بأمل إلى باب (المندرة) المؤدي إلى فسحة المنزل وهو يجلس متململًا على الدكّة الخشبية.

انتفض واقفًا حين لاح الشاب فقفز إليه وهو يطوق جسده بذراعين اشتاقتا للاحتضان وهو يبادره بالأسئلة دون أن يعطيه فرصة للجلوس أو الردّ:

- هل رأيتَ السعْد يا ولدي؟.. ها ..

- هل سمعت شيئًا عنه؟.. ها..

- إن كنت تعلم مكانه وقد استحلفك أن لا تخبرني .. فلا داعي لأن تفعل، فقط أخبره أني مشتاق إليه وأني سامحته على ذهب أمه الذي باعه، و.. و..
كان الشاب ينتقل بعينيه بين عينيْ والده الخاشعة وعينيْ أبي السعد الدامعة وهو يسأل أباه في صمت بحركة وجهه عمّا يمكن أن يفعله، أجابه الرجل بإيماءة من رأسه ثم قام وجلس لصيقًا ب (أبو السعد) ولف ذراعه حول كتفه وخاطبه بصوت هادئ :

- لا تقلق على ولدك يا (أبو السعد) إن شاء الله ستطمئن عليه، ولدي لم يره، فكما تعلم إيطاليا بلد كبير، ولكني سأجعله يتصل بمعارفه هناك ويوصيهم بالبحث عن (السعد) وإن شاء الله خير.
وقفا يودعانه وقبل أن تخرج قدمه الثانية من الباب استدار لهما دامعًا ورفع شالًا صوفيًا عن جبهته وهو يقول موجهًا حديثه للشاب:

- لعله ما زال حزينًا على جرحي.

ثم أشار إلى أثر جرح غائر في جبهته:

- أخبره أن جرحي التأم..حتى يطمئن.

بعد أن انصرف، نظر الشاب إلى والده بعين دامعة، هزّ الوالد على إثرها رأسه متأثرًا، بينما الشاب يكاد ينتحب يسأل والده:

- أليس من الأفضل له أن يعرف بأن (السعد) غرق في البحر؟

****

محتوى الكتاب	
الاهداء	3
كيمياء	4
مقاطع من لحن عنيد	6
عوسجة	12
سيرة صرصار	24
تحقيق	29
غرفة قديمة مظلمة	35
بين البقاء والحذف	39
انسحاق	45
المرافعة	49
الثقب	53
طبيب حالم وطائر حزين	56
سيرة التفاح	59

محروس	62
رحلة الى السوق	65
موعد	68
نهر	71
اغتيال	73
الساعة	75
أبو السعد	77
محتويات الكتاب	83

تمت بحمد اللّه

جميع حقوق النشر الورقي و الإلكتروني محفوظة للناشر